

الخميس 21-01-2010

874 - في شرف صحبة نجيب محفوظ



في شرف صحبة
نجيب محفوظ
وقراءة في
كراسات التدريب

الحلقة السابعة

الأربعاء 1994/12/28

كان الموعد محددًا مع أ.د. سامح همام، ذلك المصري الرائع، الجراح التشكيلي الماهر، الذي أراد الله بشيخنا، وبناءً وبني، خيرا: أنه كان في المتناول يوم الحادث، والذي ورد ذكره احتراما وعرفانا في أول تعليق لي على الحادث، كنت قد رتبت موعدا معه بالاتفاق مع الأستاذ، لم يكن هناك داع جراحى أو طبى عام للمتابعة، لكن رغبتى وموافقة الأستاذ وترحيب أ.د. سامح التقت جميعها ليتم هذا اللقاء صباحا في المنزل.

احتفاء بهذه المناسبة وترحيبا بقدم هذا الجراح المصرى الفنان المتميز بحق، ذهبت قبل الموعد بعشرين دقيقة، وأنا متردد تماما في أن أخرج الأستاذ أنى مسافر إلى سيناء لمدة أربعة أيام، فمئذ عرفته في الآونة الأخيرة، لم يمر يوم واحد إلا ورأيت فيه، وقد علمت مدى تمسكه بما اعتاد عليه، ومن اعتاد عليه، وكنت قد رتبت الأمور بحيث أطمئنه إلى الشخص الذى سوف أكلفه أن يمر عليه بدلا منى، لم يكن فى المسألة أى طب أو علاج، وبالذات طب نفسى، لكنه التعود. إن ما صار بيننا دون ألفاظ، برغم ترثيى لمن ينوب عنى، ونيق فى طمأننته وإخباره قبل إخطاره بغياي، هو السبب فى ترددى فى إخباره واستئذانه فى الغياب لهذه الأيام.

قالوا لي قبل أن أطرق الباب إن عنده ضيوف، وهو لم يعدت استقبال ضيوف هكذا في الصباح حتي الظهر، اللهم إلا أخصائي العلاج الطبيعي وقاريء الصحف، الحاج صري، وشخصي، دخلت ووجدته في حجرة الاستقبال على غير العادة، وكانت السيدة زوجته تجلس أيضا هناك ومعهما الضيفة الخاصة، الضيفة كانت السيدة "جيهان السادات"، وسار الحديث طيبا عاديًا فرحت أنني التقيتها، وخاصة أنني سمعت عن حضورها الاجتماعي المتميز من كثيرين، بقدر ما سمعت من همس غير طيب عن تصرفاتها المالية التي ليس عندي دليل عليها (ولا على غيرها كما اعتدت)، كانت تتساءل بطيبة : لم نجيب محفوظ بالذات؟ ثم أضافت (ربما وهي تتذكر المرحوم زوجها) أنه قد يكون مفهوما أن يحاوا اغتيال رئيس جمهورية أو زعيم سياسي له دور ملتبس، أو رجل بوليس له أعداء من المجرمين أو الثوار، أما نجيب محفوظ؟ فلماذا؟ كانت تتساءل بدهشة حقيقية واستغراب رافض، لم أتردد في أن أذكر للسيدة الزائرة تعقيب الأستاذ حين كنت أنقل له حب جماهير الناس له، ثم رحت أمازحه فاقترحت عليه أن يرشح نفسه لرئاسة الجمهورية وأني أضمن له النجاح، وأنه أجاب مازحا : "وهكذا، يكون هناك ما يبرر القتل".

وابتسم الأستاذ، وانتهت المقابلة.

وما رأي كمن سمعا، حين رأيت هذه السيدة المهمة، الجميلة، الهادئة تساءلت هل هي هي، أم أنها

غيرها حسب ما سمعت وما شاع عنها؟ إن من رأيت لاتعدو أن تكون امرأة عادية، جميلة، طيبة حنون مستمعة متواضعة - على حد استقبالي - ليكن، ليس هذا موضوعنا، إلا أنه حقا: 'وما رأي كمن سمعا'، وهكذا تهيات لي هذه الفرصة بالصدفة اليحثة، أن أطلع من خلال صحبتك يا شيخى الكريم على كثير من الشخوص والعقول والحضور، كنت سأعيش وأموت وأنا أتصور لهم صورا مخالفة.

حضر أ.د. سامح همام، ومعه نائب مدير مستشفى الشرطة، وهنأته بسلامة الوصول من النيجر حيث رفع رأس مصر عاليا، وقلت للاستاذ شارحا بعض ما وصلني من دور هذا الفنان الماهر فيما فعل برقبتة وعروقه، وأضفت رأيي للأستاذ كيف أن الجراحة ما زالت هي الفن المتبقى في مهنة الطب (بالإضافة إلي بعض الممارسات المتميزة في الطب النفسي) أما ما عدا ذلك فقد أصبح آلات وأرقام، وانتهزت الفرصة لأكرر على أ.د. سامح وطبيب مستشفى الشرطة ما سمعته أمس في لقاء الثلاثاء من دفاع المتهمين بالاغتيال، وأن بعض المحامين ذهب إلي حد إنكار الحادث أصلا، وها هو أ.د. سامح همام بلحمه ودمه، الذي عمل العملية، وأخذ القرار، وتدخل بمهارة وجسارة وإعجاز فحقق الله على يديه النجاة، لا بد أنه هو أيضا من صنع الخيال حسب كلام الدفاع !!! نظر إلي أ. د. سامح غير مصدق، وكأنني أخرف، وكان الدفاع يجتج بصور الاستاذ التي ظهرت في الصحف منذ أن خرج يوم عيد ميلاده معنا، وأن هذه الصور تدل علي سلامته، وبالتالي فإن كل الجريمة، بما فيها

العملية التي أجراها أ.د.سامح، هي مسرحية ملفقة من قبل الحكومة للحصول على أكبر قدر من الكراهية ضد الجماعات، ولتبرر القضاء على بعضهم من خلال محاكمة عاجلة (مغرضة بالضرورة) وحين سمع الاستاذ هذا الدفع، كرر بعد خروج د. سامح إلى أنه يمكن تأجيل الخروج (يوم الخميس على الأقل مع من تبقى من الخرافيش) حتى تنتهي المحاكمة، ورفضت ذلك تماما.

كان من مداعبات الاستاذ أمس (الثلاثاء) أنه بعد أن أكل "الطعميية"، وقطعة الجبن وحمد الله، جاءت أطباق صغيرة من الميمار المحشي بالأرز، فعزم عليه الغيطاني بواحدة (مذكرا إيانا بعلاقة ما هو 'ميمار' بالحسين)، فشكره الأستاذ معتذرا قائلا: لا يا عم أخشى أن يأخذها الدفاع ضمن أدلته لإنكار الحادث، ألا يمكن أن يقولوا أنظروا كيف أن إنسانا مصابا هكذا كما تزعمون ثم يأكل ميمارا؟ تكفي الطعميية وقطعة الجبن، إنهما أدل علي جديفة الإصابة !!

وعلي ذكر الحسين، كان الغيطاني (بحكم التاريخ والانتماء لنفس المنطقة هو وأستاذنا) يقترح مكررا أن نذهب إلى الحسين في إحدى خروجياتنا، وفضلنا أن نجد اليوم المناسب، فعرضت علي الأستاذ مثل ذلك، فحسبها وتحفظ، وقال 'شا الله يا حسين' ولكن نأخذ بالأحوط، إلا أنني لمحت داخله رغبة حقيقية في الزيارة، فاستأذنت رجال الأمن أننا ونحن في طريقنا للهرم نمر علي الحسين من فوق كوبري الأزهر، ونقرأ الفاتحة في السيارة لا أكثر، وافق الأستاذ وفرح، وحين مررنا مقابل الحسين نبهته، فدعا، وقرأ الفاتحة واتسعت أساريه، ثم أشار إلى اليمين أن هذا هو الأزهر "العظيم"، وأضاف: "هل ياتري قد رجع في كلامه بشأن أولاد حارتنا.

كنت بعد أن استأذن أ.د. سامح همام، قد استعنت بالله وقلت استأذن في السفر هذه الأيام الأربعة، وأخطره بمن رتبت لينوب عني أثناءها، وإذا بي أفجأ بسماحه المطلق دون تردد، وأنه يتمني لي رحلة سعيدة، تري هل أنا الذي انتهزت الفرصة فحضرت نفسي بهذه الأهمية كل هذا الحضور، وأثبتت نفسي ضمن علاماته اليومية، لأحظى بكل هذا الفضل، وأعيش هذه الفرصة، وتحصل هذه البركة؟ وأنه لا يحتاجني بكل هذا الانتظام كما فرضته علي نفسي ربما وعليه؟

لست متأكدا، لعل الأمر كذلك

أنا فعلا في حاجة إلي صحبتته أكثر من حاجته إلي صحبتي.

ودعته مؤقتا إلي لقاء، وقبلته، ودعا لي بالسلامة.

الحمد لله

الخميس 1994/12/29

سافرت إلي سيناء (دهب) حيث لي منزل صغير في المساكن الشعبية المتوسطة بين البحر والجبل، فرحت بهذا الانفصال المؤقت عن الأستاذ لأول مرة منذ التقيته بعد الحادث، لقب المؤقت عن الأستاذ لأول مرة منذ التقيته بعد الحادث، لقب

الأستاذ لا يعجبني، قد يليق بعباس العقاد أو زكي نجيب محمود أو محمود شاكِر، لكنه لا يليق بنجيب محفوظ، ثم إنني لا أستطيع أن ألقبه بنجيب محفوظ فقط كما كنت أفعل وأنا أقرأه قبل أن أعرفه، توفيق صالح يقول له يا نجيب بك، وأنا أستغرب ولا أستطيع، وهو يناديني بيا "يحيى به"، حتى دون لقب دكتور الذي لا أرحب به أيضاً، حاولت مرارا أن أفهمه تفضيلي لاسم مجرداء، ولم أُنح أن أقنعه، المهم سافرت بعيدا وقلت: فرصة، نبدأ في الانفصال التدريجي، قال ماذا؟ حتى يسترد تلقائيتها وأسترد إيقاعي الخاص، لكنه كان معي طول الوقت، كلمته يوميا في البيت، ولم أطلب محادثته شخصيا أبدا متعمدا لمعرفة أن المحادثة معه تكون من جانبه دون أن يستمع إلى المتحدث أصلا، قالت لي حرمه المصون أنه كان يحلم بي طول الليل، اعترتها جماملة أو كلاما مجازيا بالتقريب، فرغم العلاقة التي زادت من الجانبين بيننا لا أتصور أنني احتللت هذا الجزء من وعيه الذي يسمح بالحضور في أحلامه، لكن من أين لهذه السيدة الكريمة أن تعلم أنه حلم بي، ومدى علمي برقة علاقتهما وطيبتهما، لم تسمح لي أن أتصور أنه يمكن أن يحكي لها أحلامه، لكن لا بد أنني كنت مخطئا، هذه السيدة ليست مضطرة أن تذكر لي ذلك، ولو جماملة، إلا أن يكون قد حدث فعلا حتى حكى لها، فرحت بجد، وتذكرت كيف كانت فرحتي حين تخبرني زوجته الفاضلة وأنا داخل إلى حجرته أنني أوحشته، كنت أفرح فرحة طفل يهنأ برضا والده، وحضوره في وعيه.

الجزء الثاني

من كراسات التدريب (1)

صفحة 7

نجيب محفوظ

أم كلثوم

فاطمة

إنما الأعمال بالنيات

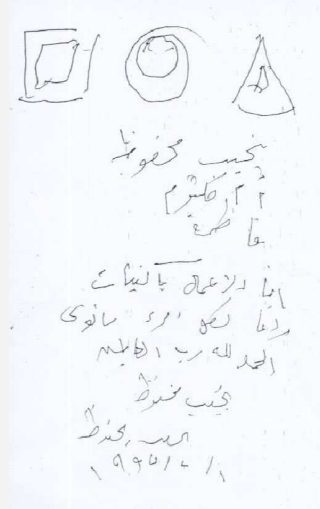
وإنما لكل امرئ ما نوى

الحمد لله رب العالمين

نجيب محفوظ

نجيب محفوظ

1995/2/1



القرائة

لم يكتب كثيرا هذا اليوم
يا ترى هو قد اطمأن إلى قدرته على الكتابة؟ أم أنها
اصبحت أقل جذبا
وهل يا ترى استغنى عن بعض الكتابة بالرسوم أعلى
الصفحة

اليوم كتب اسمى كرميتيه دون أن يلحق بأى منهما "نجيب
مفوظ"، فتأكد لي خطئي السابق في تفسير تواتر كتابة
أسمائهما، هو يكتبهما لأنهما معه طول الوقت، إسمائهما تماما هما
اسمه، رقة ابوته بالغة، لم أفهم بعض تفاصيلها، ولم أناقشه
فيها، حاولت أن أتعلم منها، لكن يبدو أن الآوان قد فات.

المحتوى هذا اليوم بسيط

إنما الأعمال بالنيات

وإنما لكل امرئ ما نوى

وهو واضح الدلالة بما لا يحتاج إلى تعقيب تقريبا

النص مختصر جدا وذائع ومتكرر، والشريف له دلالة
العميقة التي لا ينتبه لها العامة بالقدر الكافي" ..

أنا لم أطلع على هذه الكراريس أولا بأول لأرى ما كتبه
فيها يوما بيوم، كنت أتصفحها مقارنا، لأميز التقدم في شكل
الكتابة، دون النظر في محتواها، لكنني الآن (اليوم الاثنين
17/1/2010) أسبح لذكرياتي وتداعياتي التي تحضرنى من صحبتي
معه أن تناسب مستثارة بما كتب .

ذات مرة سألته عن رأيه في حكاية حسن النية، وموقفه
منها، وقلت له إنني عادة لا أقبل الاعتذار بحسن النية، حتى
من مرضى، فأنا أحترمهم لدرجة أنني أحملهم مسؤولية ما لا
يعرفونه عن أنفسهم، لنبدأ من جديد معا، وتماديت فقلت
إنني أفضل أن أتعامل مع سوء النية، حتى أواجه صاحبها
بمسئوليته، كان الأستاذ يرفض مني عادة مثل هذه المواقف،
كنت أشعر أنها تتناقض مع سماحه الشديد، لم أفجح أبدا أن
أوصل له مثل هذه الآراء التي تبدو قاسية لأول وهله، كان
يحتزم ما أقوله ثم يعترض، بطريقته، اعتراضا هادئا قويا
كعادته، لا يوجد تعارض بين القوة والهدوء، وحين تماديت في شرح
وجهة نظري، وأن موقفي ينطلق من احترامى الشديد للإرادة
الداخلية لكل إنسان، وأن أى واحد مسئول مسئول عن
كل مستويات وعيه ونواياه، حتى المجنون أنا أتعامل معه
بمسئولية مشتركة احتراميا وسماحا في نفس الوقت. ، لم أفجح
أوصل فكرتى بدرجة كافية. أذكر أن المناقشة انتقلت بنا إلى
استشهادى بمقولة لا أذكر قائلها تفيد أن كثيرا من الكوارث
الكبرى تحدث تحت مظلة حسن النية، وأذكر أنني استشهدت
بتصريحات بعض المسئولين عن هزيمة 1967 بأنهم كانوا

حسنى النية إذ أغلقوا مضايق تيران بعد أن أخفوا علينا أنهم فتحوها طوال هذه السنين، وأنهم لم يتصوروا - بحسن نية- أن الحرب سوف تقوم بسبب ذلك، ناهيك عن الهزيمة، كانت هزة رأسه هذه المرة أقوى وأحى وأرحب، وكنت قد اعتدت أن أعرف الموافقة من عدمها، من زاوية الخنائة رأسه بالإيماء نحو صدره.

مرة أخرى ، قلت له ما رأيك فيما وصلت إليه من أنه : "إنما النيات بالأعمال"، فصححني من جديد، وقال : بل إنما الأعمال بالنيات ، مثلما كتب ذلك في هذا التدريب المؤرخ أول فبراير 1995، لا أذكر طبعاً إن كان هذا النقاش دار قبل ذلك أو بعد ذلك، أصررت أن أوصل له فكرتي وأنا نعيش الوعود المفرغة من ضمان تنفيذها، وحين نواجه قائلها لا ينكر أنه عجز عن الوفاء بها، بل يحتج بأنه حين وعد كان حسن النية، ويتكرر ذلك حتى صرت ألقى كل هذه النوايا جانباً إلى أن أرى فعلاً ماثلاً، ومن هنا لا ينبغي أن نطمئن لأية نية - مهما حسنت- ما لم تحمل بشائر ومقومات تنفيذها اليوم، خريطة الطريق مثلًا هي خريطة بلا طريق، هي مثابة حسنية ورقية عبي مكاتب المفاوضين، لا علاقة لها بالزمن ولا بأرض الواقع. فلا قيمة لها إلا إذا ترجمت فعلاً إلى خطوات تنفذ كأعمال نراها رأى العين، وهكذا، كل مفاوضاتنا مع إسرائيل ووسطائها لم تنتقل من مرحلة النوايا، حتى أنني لم أعد أصفها بالنوايا الحسنة، لأنه لا يوجد ضمان أنها حسنة مهما ادعى صاحبها ذلك، لعل الأستاذ وافقني بصعوبة على ما أعتقد، إن كان قد وافقني.

ثم تطرق الحوار إلى أصل الحديث الشريف، لست أذكر أهو الذي ذكرني به أم أنا الذي أردت أن استوثق من وجهة نظري بتفسيرى الخاص جداً، قلت له إننى أقرأ "لكل امرئ ما نوى" أن ذلك بشرط أن يخرج ما نوى إلى عمل ملموس، وأن الله لا يجازى الفرد على مجرد النية، فنبهنى من جديد إلى أن الله سبحانه يجزى من هم بحسنة ولم يفعلها جزاء حسناً، فاستعبطت، وقلت له بل إن من هم بسيئة ولم يفعلها فله حسنة، ولهذا فأنا أحترم سوء النية، وكله بثوابه، وضحكنا.

وأنا أكتب الآن ما أكتب، قلت أرجع إلى منهجى في قراءة ما خطَّ شيخى تدريباً. حضرني حديث آخر أكثر تحديداً وتفصيلاً، وتصورت أنه قد كان - أيضاً - وراء تلك البضع كلمات التى خطها شيخى هذا اليوم، أذكر القارئ بالمنهج الذى أتبعه فى هذه القراءة : وهو أننى أعتبر ما خط شيخى من كلمات، هو مجرد قمة جبل الوعى المعرفى الذى حضره ولم يظهر منه إلا هذه الكلمات التى تركها لنا على الورق دون قصد، فجاءنى حديث شريف آخر، اعتبرته مكملًا، وهو حديث شريف عن من "تسعر" بهم النار يوم القيامة (استعرت النار : توقدت) : "...من تسعر بهم النار يوم القيامة عالم ومجاهد ومشفق، أما العالم فيسألُه اله الله يوم القيامة عن علمه فيقول، يارب تعلمت العلم وعلمته للناس فى سبيلك، فيقول له الله عز وجل

فيؤخذ الى النار، اما المجاهد فيساله الله عن جهاده فيقول،
 يارب قاتلت في سبيلك لتكون كلمتك هي العليا، ف: كذبت
 تعلمت العلم ليقال إنك عالم وقد قيل فيأمر الله يقول له رب
 العزة :كذبت قاتلت من أجل أن يقال إنك شجاع وقد قيل
 فيأمر الله فيؤخذ الى النار، اما المنفق فيساله رب العزة عن
 ماله فيقول، يارب انفقته في سبيلك ، فيقول له رب العزة :
 كذبتاً انفقته ليقال إنك جواد كريم وقد قيل فيأمر الله فيؤخذ
 إلى النار

قد يرجح أن المنهج الذي أتبعه الآن قد يكون مناسبا،
 وأن هذه الكلمات القليلة وراءها موقف عميق دال، ه ما
 أذكره حول نفس الموضوع حين كنا نتحاور حول ما آل إليه
 حال البحث العلمي في الجامعة وغير الجامعة، وأن قلة نادرة
 هي التي تتعامل مع البحث العلمي على أنه "بحث" و "علمي"،
 وأنه أصبح مجرد وسيلة لغير العلم، وغير المعرفة، وكنت
 استشهد بالحديث الذي أثبتته الآن، قياسا، وأقول له: فمن
 كانت "دكتوراهه" لدرجة ينالها، أو وظيفة يشغلها،
 "فدكتوراهه" لما قصده بها، ومن كانت "دكتوراهه" للبحث
 والعلم والكشف والنفع، فهي لوجه الله والناس والوطن، وكان
 يفرح بهذه القياسات، لكنه يشك في مبالغتي حين أمد هذا
 القياس إلى الأساتذة، ولجان الترقى، وأحيانا ، إلى بعض الذين
 يكتبون أدبا (يسمونهم إبداعا) مخاطبون به مسئول الترجمة في
 الخارج وهم يعرفون ماذا يجذبهم، وماذا لا يشغلهم .

كان شيعي إذا ما زوّدتها في هذه التعرية، حتى دون تعميم،
 يلتفت إلى وكأنه ينهرني أنه ليس إلى هذا الحد يا شيخ (مش
 قوى كده يا شيخ)، وكان زكي سالم، وأيامها كان يعد
 الدكتوراه في ابن عربي، ، وقد نالها بتوفيق بعد ذلك
 بسنوات، (الآن د. زكي سالم، وأشهد أن "دكتوراهه" هي لابن
 عربي ومن يمثله) كان يؤيدني بروايات من واقع اتصاله
 بالجامعة، وهو من خارجها، فيبدو على شيخنا التصديق، لكنه
 يثق وهو متألم بحق وكأنه يود ألا يصدق، فعلاقته بالعلم
 والعلماء، هي علاقة خاصة جدا، ومبجلة جدا، وأمله جدا،
 ومُحبة جدا، وسوف يأتي ذكرها في يومية قادمة بالتفصيل
 غالبا .

وإلى الحلقة القادمة